التسول مهنة الضياع، مأساة الصغار: مقالة حول ثلاث ومضات في موضوع "التسول"

هيفاء حمودة، سوريا

مقدمة

يحتسون مرارة الحياة وهم لم يعرفوا بعد ما معنى الحياة.. يتقلبون في ضنك العيش ومهانة الرزيلة التي أجبرهم عليها المجتمع.. إنها الطفولة المقدسة مرمية على حواف الطرقات؛ وعلى حواف المجتمع أيضاً. نسيمها معاناة، طعامها شمسٌ حارقةٌ أو رياحٌ هوجاء باردة.. فراشها أرضٌ ملوثةٌ ورطبة تارةً؛ وتارة أخرى جائرةٌ حارَّة.. زهراتٌ لا تعرف طعم هدوء النوم، ولم تألف للنظافة هيئة.. الوجوه شاحبةٌ، والأيادي كليلةٌ: تمتد للطلب، وكم أهانتها عيون الكبار وجبروتهم، وتراهم يمضغون تلك المرارة: شاؤوا أم أبوا.. أما آلامهم فيظنون أنها من صلب الحياة، لكنّ عيونهم البريئة تبحث لاهثة عن براءتها.. وهيهات أن تجدها في

خضم هذا المجتمع الذي ارتدته القسوة، وسادت فيه قيم الفساد والإهمال لأهم جزء من أجزاء بنائه: للأسرة.

في هذا الموضوع الاجتماعي الإنساني كتب الأستاذان: عصام الشريف وهيفاء حماد ومضات ثلاثة، وقف فيها كل منهما على اللحظة الفارقة في حياة الشخصية وتأثيرها على الصورة ككل. لقد تناولت تلك الومضات الموضوع بقسميه، القسم الأول: تحدث عن تسول الصغار وذلك في ومضة "حصيلة" للأستاذ عصام الشريف، وومضتان تتحدثان عن تسول الكبار في القسم الثاني "إلحاح" أ. هيفاء حماد، و"دعاء" أ. عصام الشريف.

"حصيلة"

"الطفلة التي تسولت طوال النهار، ألقت ما تسولته في حجر أبيها، خبأت بين ملابسها دمية اشترتها".

من زاويته يرسم لنا الكاتب ثلاث صور، أو جمل سردية محورها الشخصية الرئيسية (الطفلة)، ومن خلال

الاسم الموصول نتعرف على العمل الذي تقوم به وهو (التسوّل)، إضافة إلى جملة الزمان (طوال النهار).

في مجتمعاتنا، ما يجب أن نحافظ عليه يتمثّل بالفتاة، التي يجب أن تكون درّة مكنونة بعيداً عن انفلات الشوارع، والأعمال الخاطئة التي ستودي للسمعة السيئة. فأراد الكاتب أن تكون الشخصية طفلة، ليوسع رقعة المأساة، ويدخل إلى ذهن القارئ ووجدانه عمق الأزمة، وتردي حال الفرد والأسرة والمجتمع والدولة. فالتسول ظاهرة قديمة، وأسبابها كثيرة، منها:

انفصال الأبوين، الفقر، الجهل، انعدام الوعي لهذه المشكلة وتبني الجهات المختصة لهذا الموضوع الخطير، والحد من استفحاله.

في الجملة السردية الثانية، يضع لنا الكاتب ألفاظاً معينة ليرسم لنا الصورة النفسية للطفلة، ربما تكون غير واضحة بالنسبة لها، لكنها من داخلها تعبر عنها بالحركة، فهي مليئة بالإحساس الداخلي الحانق المتألم مثل: (ألقت..

بدل أعطت..)، (في حجر.. وليس.. في اليد..)، (أبيها) مما يدل على تذمرها من الأمر الواقع الذي أُرغمت عليه، أو فُرض عليها، ويدل أيضاً على أن (الأب) هو الآمر والراضي عن هذا العمل.

في الجملة السردية الأخيرة وبعد أن وضعنا الكاتب في الجملتين السابقتين في حياة الشخصية، سينقل لنا في هذه الجملة تلك اللحظة الفارقة الحارقة، وذلك من خلال اللمحة الإنسانية الأكثر ألماً، وهي رغبات وأمنيات الطفلة ووعيها الفطري بأنها بحاجة إلى ما يحصل عليه الصغار الآخرون "خبأت في ثيابها دمية اشترتها"، ولعلنا في هذه الصورة المؤلمة نقف عند كثير من التأويلات منها..

- أن الطفلة أثناء عملها في التسول كانت تلمح أقرانها يحملون مثل هذه الأشياء التي تعتبر من أثمن الأشياء التي يمكن أن تحصل عليها الطفلة الأنثى.

- منها.. أنها أحست بأن هذه الدمية ابنتها وأرادت كما عادة البنات أخذ دور الأمومة، ربما لتحافظ على شيء لم يحافظ عليه أهلها.

- منها.. أمنية امتلاك شيء اشترته هي برغبتها الخاصة ومن عرق جبينها حسب اعتقادها. وأن من حقها بعد هذا التعب أن تحصل على شيء لها .. ملكها.

- ومنها.. أن حقدها على من فرض عليها هذا العمل جعلها تقدم على خداعه وهو احتمال موجود، ولو أن الطفولة تترفع عن مثل هذه المشاعر .. إلا أنه يدلنا من جانب آخر وبشكل واضح على بدايات لطرق أخرى ملتوية تقدم عليها الشخصية....

الألفاظ (الأفعال مثلاً) منتقاة لتوازي الصورة المرئية لأنها لعبت دورها الصحيح في ذهن القارئ.

ترى من يجير الطفولة البريئة من براثن الوحش المترصد بهؤلاء الصغار؟ ومن يبعدهم عن أنياب المجتمع القاسي؟.

لا تقف هذه المأساة عند موضوع الصغار، بل نحن أمام ظاهرة خطيرة وهي تسول الكبار الذين يتخذون من التسول مهنة وذلك لأسباب شتى، فقد تبقيهم على تقاعسهم وانقيادهم للترهل عالة على المجتمع دون حساب لدورهم في تكوينه، أو لأنها أبسط ما يمكن فعله بعد انعدام الشخصية، أو لأنهم –أحياناً- لم يجدوا عملا مناسباً، كلّ ذلك مرده لأن المجتمعات العربية قد أعيتها الظروف الحانقة التي تسيطر عليها مؤخراً..

إن موضوع الكبار أخطر بكثير، لأنهم سيعملون دون رادع أخلاقي أو تربوي اجتماعي، فقد يستجرون الصغار برضاهم أو بغير رضاهم ويجبرونهم على التسول، وهم المسؤولون عن تحويل هؤلاء الصغار إلى مجرمين ساخطين على المجتمع، مما قد يدفعهم لتشكيل عصابات إجرامية، وبالتالي سينظر إليهم المجتمع نظرة دونية تجعل منهم عالة عليه.

في هذا الموضوع أمامنا ومضتان، إحداهما للأستاذ عصام الشريف بعنوان (دعاء)، والأخرى للأستاذة هيفاء حماد بعنوان(إلحاح)، وقد أبرزت كل منهما شيئاً من هذه الظاهرة وذلك من خلال مشاهد سردية ولحظات فارقة في حياة الراوي /السارد/ حيث نجده متنازع بين شعورين، رغبته بالتصديق وأداء الواجب الإنساني ، وبين التكذيب الذي تثيره نظرات أو تصرفات هذا المتسول.

1-إلحاح

"حسنة قليلة ترد بلاوي كثيرة" إلحاحه لتلبية طلبه أقنعني، رغم أن عينيه تقولان غير ذلك.

2- دعاء

حسبت دعاءها لي لأني أعطيتها صدقة، سمعت نفس دعائها لمن مرَّ بجانبي ولم يلتفت إليها.

في ومضة (إلحاح) نجد في الجملة الأولى مقتبس من الأدعية الدينية، ربما الخاصة في مثل هذه الأعمال، أو المواقف. "حسنة قليلة ترد بلاوي كثيرة "وكذلك" من مال

الله يا محسنين"، في هذا النداء وأمثاله نجد فيه التوسل برقة لإثارة اللهفة والرحمة واستدرار العطف من قلب السامع. هذه العبارات تتردد ويكون صداها بحسب قائلها وسامعها، وأيضاً هناك الحالات الاجتماعية التي تجعلك تقبل وتصدق هذه المقولات أو أنها أصبحت للتداول وكسب المال، أم للحاجة.. والسارد هنا في الجملة الثانية يعطي المتسول لكثرة ما يبديه من الإلحاح، وحين يخامره شيء من الشك يحسه من خلال نظرة العين التي هي الحاسة الأهم المتصلة مع الانفعال الداخلي للشخص.. ومستودع النفس. فلما تلاقت العيون كانت لحظة التشكيك، ولكن كان بينهما الدافع الإنساني الذي يربط المحسن بمن يطلب، فالكثيرون لا يتوانون عن العطاء ولو أحسوا أنهم مخدوعون. من ناحية ثانية نجد هذه اللمسة الإنسانية من المحسن للطالب في ومضة دعاء..

في هذه الومضة نجد أن الشخصية الراوي قام بالفعل من خلال الحالة الإنسانية، ولكن من البداية فيها شيء من الاستغراب والخيبة كـــ (حسبت) في الجملة الأولى.. وقد

ظهر الشك هنا ليس من خلال نظرة العين؛ بل من خلال التصرف الذي جاء عن طريق الصوت الذي حمل الاعتياد على الشيء، كترداد هذه العبارة بشكل تلقائي، وذلك بغض النظر عن الاستجابة.

لقد تنوعت وجهات النظر في الومضات الثلاثة بين ضمير المتكلم وضمير الغائب..